

## الرواية والمرجعية الايديولوجية

د. حميدي بلعباس  
جامعة معسكر

لقد اكتملت كتابة الرواية الجزائرية الناضجة في سنوات السبعينيات، وقد كانت الجزائر في تلك الفترة حديثة العهد بالاستقلال، في ظل هذه الظروف انتهجت نهج المعسكر الاشتراكي، وسخرت لذلك كل السبل الكفيلة لإنجاحه، فكان الخطاب الايديولوجي هو السيد من أجل تحقيق مسيرة الاشتراكية في نطاق مخطط.

لقد أفرز الخطاب الايديولوجي أدبا مؤطرا ترسم معالمه الايديولوجيا تارة بدعوى الثورة والتنمية والوحدة والعمل الثوري والمعرفة المسبقة بـ(أن الجميع سيضعون أنفسهم في خدمة الثقافة القومية، ثقافة الجماهير الكادحة التي تريد أن ترى انتاجا يمثل مشاعرنا مضمونا وشكلا)<sup>1</sup>. وتارة أخرى بدعوى الخروج من أزمتنا الثقافية وتحقيق الأهداف الاجتماعية للثورة.

لقد كانت المهمة الكبرى التي دعا اليها أدباؤنا بدعوى تمثيل الواقع الاجتماعي وتجسيد ذلك بواسطة الايديولوجيا ما هي في الواقع سوى مباركة للنهج السياسي الذي انتهجه صناع القرار في الجزائر.

لقد أنجب هذا التوجه أدبا إيديولوجيا في فترة السبعينيات من القرن الماضي، حيث ظلت الإبداعات الأدبية، خاصة الرواية مواكبة للخطابات السياسية، مدعمة لمساعيها ومراميها الاجتماعية ومعلقة على برامجها التنموية، فكانت مجموعة كبيرة من الروايات تبارك التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي انتهجت الجزائر، ممارسة سبل الدعاية من أجل المجتمع المنشود.

تعتبر الرواية شكلا من أشكال التعبير ووعاء تصب فيه أفكار ورغبات وأحاسيس الانسان في صراعه مه واقعه ومحيطه، بغية تفعيل الوظيفة الاجتماعية للأدب. ويبدو أن الانتاج الروائي الجزائري ضارب ( في أعماق هذا الشعب فإنه مع ذلك تأثر بالمدارس الادبية المختلفة بحكم التذبذب الاجتماعي، من جهة، وبحكم أن الشكل أو القالب الفني الذي صب فيه هذا الموضوع وافدا علينا، وبذلك فهو قد جر وراءه كل العناصر الجمالية والايديولوجية )<sup>2</sup>. لقد تجلت الايديولوجيا في الخطاب الروائي في العناصر التالية:

1- الايديولوجيا الاجتماعية:

قد لا يخفى على الدارس المتابع حينما يقرأ روايات طاهر وطار أن يدرك أنها تنطلق من مرجعية إيديولوجية يؤمن بها الأديب، مرجعية انعكست على نصوصه وابداعاته فتركت بصماتها واضحة على المتون الأدبية. وتبدو كذلك نابعة من فكرة مسبقة الصنع واضحة المعالم والمرامي، وبالرغم من أن نصوصها تغرف من معين الذاكرة الاجتماعية، فإن رؤية المؤلف تتجسد في (جزئها الأول كتابة لفترة تاريخية محددة من وجهة نظر محددة أو وعي المبدع بكل ذلك التاريخ المفتوح، فهني تحكي عن النضال الوطني ضد الاستعمار الدخيل ويتخلل هذا الحكوي حكاية تعامل الثورة مع الحزب الشيوعي. وهي بذلك ترفع الستار عن تصادم ايديولوجي بين فئتين بارزتين من خلال أحداث الرواية)<sup>3</sup>. تصادم لم يلبث أن استوطن الذات المقاتلة والمسلوقة الحقوق نتيجة لعدم تجانس الرؤى لهذه النخبة الثورية. من هنا يمكننا أن نلاحظ أثر المد الايديولوجي المنتشر داخل الرواية، وهاهنا تجدر الإشارة والتأكيد على ( أن الفكرة لا تصير أدبا إلا إذا استحالت إلى شعور أو إلى برهة في بنية الوجدان وما ذاك إلا أن الشعور هو كل شيء في الحياة البشرية )<sup>4</sup>.

يبدو أن الرواية تكشف عن وعي ايدولوجي منذ البداية، مما أورت تصادما بين كتلتين (إذا الكتلة الأولى إيدولوجية اليسار تتخذ في الوسط الشعبي، فإن الكتلة الثانية تفضل المواجهة في الشكل السلطوي المستبد)<sup>5</sup>. ومما هو جدير بالملاحظة أن ابراهيم عباس، قد حاول إبراز كيفية تعامل الكتابات التي تدعو إلى الاشتراكية مع الواقع ومعرفة مدى إخلاص الكاتب الاشتراكي لعقيدته (ليجعل منها مثله الفكرية، ولا يصح ثمة فارق بين مقاصد عقيدته ومقاصده الذاتية، فالأفكار لا تصبح قوة مبدعة إلا على قدر تغلغلها إلى صميم كيان الكاتب وامتزاجها بمحاجات قلبه وعقله)<sup>6</sup>. فالفكرة هي الأدب إذا ما تمكنت من فؤاد الأديب .

إن كثافة الصورة المذهبية اليسارية على أوضح صورها في شخصية زيدان أو في شخوص آخرين في الرواية واستنادها إلى وضع تاريخي وفكري معين، كل ذلك أثر على فنية العمل الأدبي كما أشار إلى ذلك الناقد ويستدل في ذلك في تحميل شخصية حمو رغم تواضعه الفكري وأميته مثل هذه القضايا النظرية الخطيرة بكل بساطة)<sup>7</sup>. ويقصد بذلك استعمال هذه الشخصية لألفاظ من مثل الرفيق بدلا من لفظة الاخ، وابن أمي بدلا من أخي، في حين لا يرى واسيني الاعرج في ذلك إلا صورا من صور عفوية الشخصيات حيث يقول: (هذه العفوية ذاتها، هي شكل من اشكال الوعي التاريخي الذي يعتمد على تفاصيل الحياة الدقيقة وعلى الملاحظات الصغيرة داخل واقع يتغير بسرعة كبيرة)<sup>8</sup>. فإذا كانت هذه العفوية أو التلقائية في ابتكار الشخصيات قد أنجبت ابداعات ادبية معيبة خلدتها اهي عصور الرواية، فإن عفوية أدبنا قد صبغت بألوان قانية وإلا كيف يتأتى للذهن التزيه أن يفسر ذلك (إلا إذا كان هذا ينبع من جاهزية موقف الأديب نتيجة لحتمية الخطاب الأيدولوجي المؤطر)<sup>9</sup>. فالشخصية المحورية في رواية "اللاز"، التي هي زيدان، لا تنبعث على نحو تلقائي، فهي ليست سوى استحضار لموقف ايدولوجي (اجتهد الأديب في نسج قماشه خيطا خيطا)<sup>10</sup>. فهو رمز للفكر الشيوعي بكل مظاهره.

لقد واضبت رواية "اللاز" الثانية في نظر ابراهيم عباس على استحضار الفكر ايدولوجي، غير أن حلبة الصراع قد شهدت احتداما لم تكتمل فصوله مع بزوغ فجر الاستقلال، لقد انتهى الناقد بعد فحصه مجال الصراع ايدولوجي داخل الرواية إلى أن الأديب (لم يفلح تماما في النص الثاني في خلق تلك الجدلية ايدولوجية، ولم يفلح أيضا في تصميم نهج سليم وموضوعي)<sup>11</sup> فرهان الأديب على المرجعية ايدولوجية ومشروعها وطموحاتها سرعان ما قد تهاوى في واقع يتغير بسرعة نتيجة الابتدال الذي مارسه السياسة، ابتدال صدقته الأقلام الجزائرية بوعي واندفاع الشيء الذي جعل الأحلام والطموحات تتهاوى كالجرف الهاري .

وإذا كان ابراهيم عباس يشير إلى بعض مثالب الرواية، على المستوى الفني التي فرضتها بشدة حتمية الخطاب ايدولوجي الموجه، فإن مخلوف عامر له رأي مخاف حيث يعتبر أن طاهر وطار (لو تجنب بعض المسائل الشخصية في فقرات أفردتها للهوراري لكان أفضل، لأنها طبعت الرواية بإسقاطات ذاتية واسلوب تقرير مباشر، ومهما يكن فإن طاهر وطار قد استطاع أن يتابع مسيرة الثورة الجزائرية وأن يقتفي آثار لازها -عبر مرحلتين متميزتين)<sup>12</sup>

إن هذه لم تشكل من فراغ وهيمنة الأسلوب التقرير المباشر التي فرضته حتمية سبقت الإشارة إليها في حين تظل (النصوص المتميزة شكلا ومضمونا تكتسب وجودا مغايرا لتحليلات التاريخ العربي، كما توطئه الخطابات الرسمية وتحتزله التحليلات ايدولوجية التعميمية)<sup>13</sup>. ذلك أن قراءة التاريخ داخل الأعمال الأدبية كثيرا ما يؤطر بالترعة الاجتماعية .

وفي موضع آخر يعتبر ابراهيم عباس أن من الأسباب التي أورت فشل ذريعا على المستوى الفني والموضوعي هو (الاندفاع إلى الأمام لكل المعنيين بأمر الاشتراكية في الجزائر)<sup>14</sup>. إن تحقق الترعة الاشتراكية على أرض الواقع ضمن

الأصعدة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، قابله على الصعيد الفكري والأدبي تجسيد صورة الولاء الذي أخذ يدين به بعض الأدباء وذلك بانحيازهم إلى جانب السلطة بدعوى اعتقادهم في الواقعية الاشتراكية، مما أروع تصلبا وفشلا فنيا على مستوى الابداعات الفنية .

تعتبر رواية الزلزال ثاني رواية للأديب طاهر وطار ،وقد صور فيها مرحلة ما بعد الاستقلال الوطني وإلى بداية السبعينيات من القرن الماضي ليخصص هذه الرواية لموضوع الثورة الزراعية .

لقد جاءت الرواية تمارس الدعاية لقرارات السلطة في تلك المرحلة مؤيدة لقراراتها الكبرى خاصة في ما يخص تأميم الأراضي الزراعية وإعادة تقسيمها على الفلاحين بشكل عادل .

لقد حملت رواية الزلزال زلزالا عنيفا سعى للإطاحة بالإقطاع ،وقد شكل هذا التحول الاجتماعي تصدعا كبيرا في البيئة الاجتماعية (مع مشروع الثورة الزراعية ،كما أن من بين معانيه أيضا ذلك الإحساس بالزلزال الذي يوافق ذهن بطل الرواية من بدايتها إلى نهايتها )<sup>15</sup>. لقد سعى طاهر وطار إلى تمثيل تغير قسنطينة وتغير طباع وسلوكات أهلها أيضا .

لقد سعى طاهر وطار بحكم إقامته الطويلة في قسنطينة إلى رسم معالم التغيير التي شهدتها المدينة ،وقد جسدها شخصية "بو الأرواح" بطل الرواية ونظرة بو الأرواح ما هي سوى نظرة الأديب لما طرأ على هذه المدينة من تغير .

لقد سعت الرواية الى تصوير تغير شخصية بالباي ،هذه الشخصية التي كان لها مكانة لدى الجميع صاحب المطعم وقد تغير في هيأته وفي جسمه وفي سلوكه أيضا ،لقد تردد بالباي في قبول ثمن الفطور وتردد الشيخ عبد المجيد بو الأرواح في دفعه ،لكم سرعان ما تدخل ابن بالباي فانترع الورقة النقدية من يد الشيخ عبد المجيد بو الأرواح مبتسما .

ويرى "واسيني الأعرج" أن رواية "الزلزال" قد (كشفت عن اللعبة الرجعية بكل خلفياتها التي يطرحها الإقطاع كبديل لما هو قائم)<sup>16</sup>. ويعتقد أن الساحة الأدبية الجزائرية ،قد أفرزت أدبا عربيا متميزا إلى حد بعيد ومرتبطا بواقعه ،بشكل عضوي .لقد سعى وطار إلى تجسيد الواقع فنيا بكل ما يحمله من تناقضات ليعيد انتاجه من جديد وفق ايدولوجية تحاول رسم واقع جديد .

كعادة طاهر وطار يضع القارئ أمام خاتمة مفتوحة على التفاؤل التاريخي ،وقد سعى في رواية اللالز إلى تجسيد شخصيته المركزية المتمثلة في بو الأرواح (وهو نموذج الإقطاعي المؤطر مكاني "قسنطينة" وزمانيا "قبل تطبيق ميثاق الثورة الزراعية بقليل" وورث الأخلاقيات التقليدية التي ما تزال تمارس حضورها حتى الآن)<sup>17</sup>.

لشخصية بو الأرواح أهمية بالغة في الرواية ،فهي محورية بل هي الرواية نفسها ،وقد سعى وطار إلى تصوير هذه الشخصية وتجسيدها وتمثيلها على أن لها علم خاص بها ،متشعب بأفكاره ولا يرغب في دخول عوالم أخرى وحتى الاقتراب منها ،ولا يتردد في إعلان نفسه إطارا وعالما قائلا : (أنا عبد المجيد بو الأرواح ،عم الطاهر صهرك ،مدير ثانوية بالجزائر العاصمة عالم في الدين والنحو والصرف)<sup>18</sup>.

لقد سعى وطار إلى تمثيل هذه الشخصية بما يخدم الفكرة العامة في الرواية ،مبرزا مجموع الروافد الثقافية التي نمت منها هذه الشخصية ،فهي تبدو سلفية تعارض بشدة الوافد الذي يفق حجر عثرة أمام تطلعاتها ،ويتحدث وطار عن ثقافة بو الأرواح قائلا : (قرأنا العلم الشريف ،وجالسنا العلماء ،وكافحنا مع الشيخ بن باديس تغمده الله برحمته الواسعة ،وتفقهنا في المذاهب الأربعة ،ولم نعثر على هذا المنكر ،لا... الشيء لمن يملكه ،والتمليك وارد في القرآن الكريم)<sup>19</sup>. يبدو من أول وهلة أن بو الأرواح باديسيا في تكوينه وتفكيره ،ويقف مصطفى فاسي على حقيقة أخرى مفادها أن بو الأرواح كان سلفيا وكانت أفكاره تتعارض مع الشيخ ابن باديس حيث يقول : (في الحق كان غريبا عنا ،بالرغم الحماس الذي كنا

نحيطه به ، كان نهما ممتلئا يسير بكل جوانبه نحو المصب ... إلى أن يقول ... لو عاش لكان لنا معه شأن ، إنما الدين هو الدين ، وليس شيئاً آخر ، الدين الاخلاص للسلف ، وكل بدعة ضلالة )<sup>20</sup> .

لقد جسد طاهر وطار شخصية بو الأرواح كونها تستعمل الدين لتحقيق مصالح آنية ، والغريب أن كل ثقافته دينية ، وموظفة توظيفاً ذكياً من أجل المحافظة على مكتسباتها وتقف أمام من يهدد مصالحها . لقد وفق بو الأرواح في وجه الإصلاحات والتنمية ، ويورد مصطفى فاسي مقطعاً مهماً من الرواية حيث يقول : (عليكم اللعنة في الليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى إن كانوا يعرفون معنى للعدالة ، هم الذين يخططون للاستيلاء على أراضي الناس )<sup>21</sup> .

لقد سعى وطار إلى تصوير بو الأرواح المذهول من صدمة التغيير التي تعرضت له مدينة قسنطينة وأهلها ، فمؤيدوه وضحاياه أضحوا في ركب السلطة وباركوا قرارها الممثلة في شعارات كثيرة "الأرض لمن يخدمها" فسعى بذلك إلى أن (يبحث عن تبقّى من أهله ، وأقاربه الذين نسيهم كل هذه الفترة ، ليتذكروهم متأخراً ، أي وفق ما تملّيه عليه مصلحته الطبقيّة ، ليقسّم عليهم أراضيهم ويسجلها باسم أبنائهم ) (بو الأرواح عاقر)<sup>22</sup> . لقد فكر بو الأرواح في تجزئة أراضيهم حتى لا يطالها التأميم ، ويعود بعدها إلى تأميمها ، لقد صور "طاهر وطار" بو الأرواح بتعدد الروح الواحدة فيه ، روح تتجدد وتنبعث من جديد ، هو الحرص على الحياة والسعي إلى التجدد ، وهو رمز لأفكار يحاول توريثها وتأييد التغيير .

## -2- مقولة الالتزام :

أولى النقد الجزائري أهمية بالغة لقضية الالتزام ، يقول محمد مصايف في هذا الشأن : (أدركنا أن الالتزام اعتناق هذا الأديب شاعراً كان أم أديباً يختار موضوعه وطريقة تعبيره بكل حرية ، لأنهما يوافقان مذهبه في الحياة ويلبيان نزعة عميقة في نفسه)<sup>23</sup> . وإذا أردنا تتبع آراء الناقد في هذه القضية ، فإننا نلفي أنه أقر بإعلاء مبدأ الالتزام في روايتي "اللاز" و "الزلزال" للطاهر وطار ، مبدأ يندرج في نظره في إطار الواقعية الاشتراكية ، لأنها تستمد مقوماتها من الواقع المعيش والحياة اليومية ) ثم تقوم بصقل هذه الحياة اليومية الكادحة وصبغها بالصبغة الفنية )<sup>24</sup> . فكيف يرى دعاة الواقعية الاشتراكية قضية الالتزام إذن ؟

تتلخص الإجابة عن هذا السؤال فيما يلي : أن (الفن يكون ملتزماً من الوجهة الشيوعية إذا عرف مساره الحقيقي ، إذا تدخل في المجتمع كقوة ثورية تعمل على منحه الغطاء الثوري )<sup>25</sup> . ف "اللاز" في نظر الناقد هو الشعب الشقي الذي طالما بحث عن نفسه قبل الفاتح نوفمبر ، ووجدتها بعد هذا التاريخ في بطولة فريدة من نوعها و "زيدان" أبوه نفسه يرى فيه هذه الدلالة فيقوم بصدد تحديد شخصيته إنه : ابن الجميع ، ابن ذلك الزمن ابن ماضينا كله<sup>26</sup> . في حين هو بالنسبة للطاهر وطار (الشعب برمته ، الشعب المطلق بكل المفاهيم )<sup>27</sup> . أما في رواية الزلزال فقد عبر طاهر وطار بروايته عن موقف الشعب وطبقاته المختلفة إزاء الثورة الزراعية .

ظلت الرواية الجزائرية متمتعة بزوها الفني والأدبي تستقي من روافد فكرية متنوعة ، فكانت واقعية وایدولوجية ورومنسية وفلسفية وظلت تسامر التحولات باقتدار كبير ، ولو قدر لها أن تأتي على غير هذه الشاكلة لصارت ابداعات لا تملئنا ، كونها تنطلق من مشارب قد انفصلت عن المكونات الأخرى الفاعلة والمؤثرة في تقويم وتوجيه الأعمال الأدبية والفنية .

قائمة لمصادر والمراجع :

- 1- محمد مصاييف ،فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع /ط1 ن1981 ،ص184 .
- 2- مرزاق بقطاش ،من حوار أجراه معه طاهر يحياوي ،جريدة المساء، بتاريخ 1989/11/12 .
- 3 ابراهيم عباس ، الرواية المغاربية الجدلية التاريخية والواقع المعيش ،منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال الجزائر 2002،ص 17 .
- 4- يوسف سامي اليوسف ،مقال في الرواية ،ص 38
- 5- ابراهيم عباس ،الرواية المغاربية ،الجدلية التاريخية والواقع المعيش ،ص 17 .
- 6- رجاء عيد ،فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ،ص 224 .
- 7- ابراهيم عباس ،الرواية المغاربية والجدلية التاريخية والواقع المعيش ،ص 33 .
- 8- واسيني الأعرج ،اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ،ص 51 .
- 9- ابراهيم عباس ،الرواية المغاربية ،الدلية التاريخية والواقع المعيش ،ص 34 .
- 10- المصدر نفسه ،ص 34 .
- 11- المصدر نفسه ،ص 35 .
- 12- مخلوف عامر ،اللازم من الكفاح المسلح إلى الزمن الحراشي ،المجاهد الأسبوعي 1082 ع،بتاريخ 1982./05/01
- 13- محمد براءة ،فضاءات روائية ،ص 66.
- 14- ابراهيم عباس ، الرواية المغاربية ،الجدلية التاريخية والواقع المعيش ،ص 35 .
- 15 -مصطفى فاسي ،دراسات في الرواية الجزائرية ،دار القصة للنشر ،الجزائر ،دت ،ص 29 .
- 16-الأعرج واسيني ،اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،ص 486 .
- 17-المرجع نفسه ،ص 536 .
- 18-الزلال ،ص 105 .
- 19-ينظر مصطفى فاسي ،دراسات في الرواية الجزائرية ،ص 32 .
- 20-الزلال ،ص 18.17..
- 21-الزلال ،ص 51
- 22-الأعرج واسيني ، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ،ص 537 .
- 23-محمد مصاييف ،فصول في النقد الأدبي الحديث في الجزائر ،المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ،ط 1 ن1981 ،ص194 .
- 24- رجاء عيد ،فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ،ص 30 .
- 25- المرجع نفسه ،ص 132 .
- 26- محمد مصاييف ،الرواية العربية الجزائرية بين الواقعية والالتزام ،ص 30 .
- 27- اللازم ،ص 167 .